الصاعقةَ التاسعة والثلاثون: إنِّي لأعلمُ واللبيبُ خبيرُ(*)

إني لأعلمُ، واللبيبُ خبيرُ، أنَّ الحياةَ وإن حرصتُ غُرُورُ
ورأيتُ كلاًّ ما يُعلّلُ نفسَهُ بتعلّةٍ وإلى الفناءِ يصيرُ
أمجاورَ الدِّيماسِ رهنَ قرارةٍ فيها الضياءُ بوجهِهِ والنورُ(١)
ما كنتُ أحسبُ قبل دفنِكَ في الثَّرى أنَّ الكواكبَ في الترابِ تغورُ
ما كنتُ آملُ قبل نعشِكَ أن أرى رضوى على أيدي الرجالِ تسيرُ(٢)
خرجوا به ولكلّ باكٍ خلْفَهُ صعقاتُ موسى يومَ دُكّ الطورُ
والشمسُ في كبدِ السماءِ مريضةٌ والأرض واجفةٌ تكادُ تمورُ(٣)
وحفيفُ أجنحةِ الملائكِ حولَهُ وعيونُ أهل اللاذقيّةِ صُورُ(٤)
حتى أتوْا جدثًا كأنّ ضريحَهُ في قلبِ كلّ موحِّدٍ محفورُ
بمزوَّدٍ كفَنَ البلى مِنْ مُلكِهِ مغْفٍ وإثمِدُ عينِهِ الكافورُ
فيه السّماحةُ والفصاحةُ والتقى والبأسُ أجمعُ والحجى والخيرُ
كفلَ الثناءُ له بردّ حياتِهِ لما انطوَى فكأنَّهُ منشُورُ

(*) مناسبة القصيدة: قال هذه القصيدة يرثي محمد بن إسحاق التنوخي.
(١) الديماس: مكان عميق لا ينفذ إليه الضوء.
(٢) رضوى: اسم جبل.
(٣) واجفة: مضطربة. تمور: تذهب وتجيء.
(٤) صور: جمع أصور: مائل العين.

وكأنما عيسى ابنُ مَريمَ ذكْرُهُ ... وكأنّ عازَرَ شخصُهُ المقبورُ

غاضتْ أناملُهُ وهنّ بُحُورُ ... وخبَتْ مكايدُهُ وهنّ سعيرُ

يُبْكى عليهِ وما استقرّ قرارُهُ ... في اللّحدِ حتى صافحتْهُ الحورُ

صبراً بني إسحاقَ عنهُ تكرّمًا ... إنّ العظيمَ على العظيمِ صبورُ

فلكلّ مفجوعٍ سِواكم مُشبِهٌ ... ولكلّ مفقودٍ سواهُ نظيرُ

أيام قائمُ سيفِهِ في كفّهِ الـ ... ـيُمنى وباعُ الموتِ عنه قصيرُ

ولطالما انهملتْ بماءِ أحمَرٍ ... في شفرتيْهِ جماجمٌ ونحورُ

فأُعيذُ إخوتَهُ بربّ مُحَمدٍ ... أنْ يحزنوا ومحمّدٌ مسرورُ

أو يرغبُوا بقصورِهمْ عنْ حُفرَةٍ ... حيّاهُ فيها منكرٌ ونكيرُ

نفرٌ إذا غابتْ غمودُ سُيُوفِهم ... عنها فآجالُ العبادِ حُضُورُ

وإذا لقُوا جَيشًا تيقّن أنهُ ... منْ بطنِ طيرِ تنوفةٍ محشُورُ[1]

لم تثنَ في طلبِ أعنّةُ خيلِهم ... إلا وعُمرُ طريدِها مبتُورُ

يمّمتُ شاسعَ دارِهمْ عن نيّةٍ ... إن المُحبّ على البِعادِ يزُورُ

وقنعتُ باللّقيا وأوّلِ نَظرَةٍ ... إن القَليلَ مِنَ الحبيبِ كثَيرُ

(١) التنوفة: الصحراء.